



----- الجزء الثاني والأخير -----

***** بقلم: سامي بن كرمي *****

تقاربت الأفكار والأساليب والأهداف بين حركة الإخوان المسلمين وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حينذاك، ومن بين المشواهد على ذلك أن رائد الحركة الشيخ حسن البنا رحمه الله تعالى أسس مجلة فكرية دعوية في القاهرة سماها بمجلة الشهاب تيمنا بإصدار جمعية العلماء المسلمين في الجزائر. وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس ذا سمعة عالية في أوساط المفكرين والدعاة في القاهرة، وحيث أن الشيخ الورتلاني من تلامذته المقربين، فواصل هذا الأخير في نهج الحركة الدعوية والإصلاحية وانتسب إلى حركة الإخوان المسلمين وأيضا حركة الشبان المسلمين. روج لقضية استقلال الجزائر ومحاربة الاستعمار، كما اهتم بالقضايا المصيرية للأمة فكان أحسن سفير في ذلك، فما فتئ يبذل وقته وجهده في سبيل تحقيق الإصلاح.

ابتداءً من سنة 1944 ساهم في تأسيس جمعية الجالية الجزائرية، واللجنة العليا للدفاع عن الجزائر في مصر، ثم جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا، وكان أمينها العام، ومكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان نائب رئيسه.

نسج الشيخ الورتلاني باهتماماته علاقات تعدت القضية الجزائرية، فكان له تواصل مع الحركات التحررية في العالم الإسلامي واهتم بها وكتب عنها كثيراً في الجرائد والمجلات. ومن بين الشخصيات التي ربطته علاقات قريبة معها أمير شكيب أرسلان، ومحي الدين الخطيب، ورشيد رضا، وجمال عبد الناصر، ومحمد مصدق، وطه حسين وعباس محمود العقاد.

كان الشيخ الورتلاني من المقربين للشهيد حسن البنا، ولمّا لمس لديه هذا الأخير من توافق في الرؤى وكذا قدراته الخطابية، كلفه عدداً من المرات أن ينوب عنه في إلقاء كلمته في اللقاء الأسبوعي الذي كانت جماعة الإخوان المسلمين تنظمه يوم الثلاثاء.

سنة 1947، وتحت لواء حركة الإخوان المسلمين، وبتكليف مباشر من زعيمها، انتقل الشيخ الورتلاني إلى عدن حيث أقام وأسس شركة تجارية فيها. كان اليمن السعيد يئن تحت جور حاكمه الإمام يحيى حميد الدين ولم يكن ذلك ليدع شيخنا المفضل دون اهتمام، وهو الذي أزمع على مقارعة الظلم أين ما كان في العالم الإسلامي، فوحدة العقيدة تجمع المسلمين قبل وحدة الياسة، وما يضر إندونيسيا وجب أن يقف ضده المغرب الأقصى. تنقل الشيخ الورتلاني كثيراً في ربوع اليمن، والتقى بزعماء القبائل. ألقى الخطب والمواظع في المساجد والمجالس، أوجع الهمم وشد على الأيادي، كان خطيباً وفصيحاً بارعاً، تَلَجَ كلماته إلى أعماق القلوب، فتجد المفاتيح لإحيائها تحت راية الإسلام والعقيدة، فنجح في توحيد صفوف المعارضة ضد الحاكم الجائر، وشهد له بذلك أهل اليمن. قال عنه أحمد الشامي أحد المشاركين في هذه الثورة: "إن العالم المجاهد الجزائري السيد الفضيل الورتلاني هو الذي غير مجرى تاريخ اليمن في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، وأنه حين وضع قدمه على أرض اليمن كأنما وضعها على "زر" دولاب تاريخها، فدار بها دورة جديدة في اتجاه جديد، لأن ثورة الدستور سنة 1367هـ 1948م هي من صنع الورتلاني".

العربي والإسلامي وعلى رأسها القضية الأهم بالنسبة له، أي القضية الجزائرية، فاقترح لقادتها أن يتحرك صوب معارفه في العالم لفك العزلة عن مصر وجمع الأموال اللازمة لبعث مشاريع التنمية في البلد. إلا أنه وبعد التضيق الشديد والاعتقالات والإعدامات التي أصابت أعضاء حركة الإخوان المسلمين ابتداء من سنة 1954، جعلته يغير موقفه إزاء حكام مصر حينها وأن ينسحب من أي نشاط معهم، فلما أحس بالطوق الذي بدأت تفرضه عليه المخابرات المصرية، غادر بداية 1955 متجها إلى بيروت.

في شهر ديسمبر 1953 ألقى الشيخ المورتلاني خطابا خلال المؤتمر الشعبي الإسلامي الذي انعقد في القدس الشريف. وقد سبقه صيته أمام الحضور، وعرفانا لجهوده لصالح القضايا التحريرية في العالم الإسلامي وعلى رأسها قضية الجزائر وقضية فلسطين، فتقرر تعيينه مندوبا خاصا لتمثيل كل من المؤتمر الإسلامي العالمي ومؤتمر علماء الإسلام خلال رحلته الدولية.

في غرة نوفمبر 1954، انطلقت في الجزائر ثورة التحرير المباركة، وقد كان للشيخ المورتلاني الحظ الوافر لخدمة القضية من خلال علاقاته وسفرائه إلى الدول الإسلامية، فكان أحسن سفير للقضية. حياه الله تعالى بذكاء خارق وفصاحة غير اعتيادية وقوة إقناع زائدة، سخر كل ذلك في تسويق القضية، مبينا أبعادها وضرورتها. بتاريخ 3 نوفمبر 1954 أصدر بياناً مما قال فيه " إلى الماثريين الأبطال من أبناء الجزائر اليوم حياة أو موت " وعاد وأصدر بياناً ثانياً مطولاً برفقة الشيخ بن باديس قالاً فيه " نعيذكُم بالله أن تتراجعوا " و "إن التراجع معناه الفناء، إن فرنسا لم تبق لكم ديناً ولا دنيا، وكل إنسان في هذا الوجود البشري، إنما يعيش لدين ويحيا بدنيا، فإذا فقدتهما فبطن الأرض خير له من ظهرها".

شارك الشيخ المورتلاني في تأسيس جبهة تحرير الجزائر في 17 فبراير 1955 وضمت كل من الشيخ الإبراهيمي، وممثلين عن جبهة التحرير الوطني مثل أحمد بن بلة وحسين آيت أحمد ومحمد خيضر، وبعض ممثلي الأحزاب الجزائرية الأخرى مثل الشاذلي مكي وحسين لحول وعبدالرحمن كيوان وأحمد بيوض. وكان الهدف منها خدمة القضية الجزائرية ومساندة الثورة. كما عُيِّنَ أيضا ابتداء من سنة 1955 عضوا قياديا بمكتب جبهة التحرير الوطني بالقاهرة، وعُيِّنَ مندوبا لها في تركيا سنة 1956 فسعى حثيثا خلال سفرائه إليها لإقناع أصحاب القرار فيها بعدالة الثورة الجزائرية وأحقية الشعب الجزائري بالاستقلال، خاصة وأن تركيا كانت عضوا في الحلف الأطلسي.

ترك الشيخ الورتلاني بيروت واستقر في تركيا. وأصل عمله بكل تفان وإخلاص خدمة للقضية المحورية: استقلال الجزائر. ما كان لبشر أن يبذل ما بذل الشيخ الورتلاني خلال مسيرته من جهود وسهر وسفر من دون أن تعتل صحته. ما كان هو ليبالى بذلك، فهدفه كان في سبيل الله بخدمة وطنه وأمته. زال منه المرض ما زال، وتغلغل الأسقام في جسده النحيف، وما كان يعياً بذلك، لقناعته بأن آخر نَفَسٍ له سيكون في سبيل الله وسبيل القضية.

بتاريخ 12 مارس 1959 في غرفة عمليات جراحية في مدينة أنقرة التركية حلت ساعة الرحيل، وصعدت نفسه الزكية إلى بارئها، وترجل من على صهوة جواده.

توفي الشيخ المجليل والمجاهد المغوار وحامل قضايا الأمة في صمت وغياب رهيبين. دفن في أنقرة، وظلت رفاتة هناك إلى غاية سنة 1987، وبالتحديد 12 مارس حيث تم نقل رفاتة الطاهرة إلى مسقط رأسه بعد موافقة السلطات الجزائرية بذلك.

قال عنه المثائر اليمز محمد محمود الزبيري "لأ أظن أنه يوجد للفضيل الورتلاني نظير في العالم الإسلامي علما وكمالا وإخلاصا وهيبة وجلالاً". أيهم من النخبة من قال مثل هذا؟

من خلال ملحمة الشيخ الفضيل الورتلاني عرفنا معنى الإخلاص ولو عرفنا معنى الإخلاص، عرفنا حتما معنى الخيانة.

الشيخ الدورتلاني شخصية فريدة من نوعها، مثال للإخلاص والتفاني والبذل في سبيل معتقداته. هو واحد من عظماء كُثُر أنجبتهم الجزائر ونسبي فيه الجزائريون. لا أجرؤ أن أتخيل أنه لو تجولت في ربوع الجزائر وسألت أي أحد ماذا تعرف عن الشيخ الدورتلاني، ماذا سيكون الجواب يا تر؟ يا حسرة علينا، ألما نستحق صيرورتنا؟ فوالله لعله بسبب نكراننا لمن لهم الفضل الكبير علينا أننا نخبط فيما نتخبط فيه الآن.

رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنانه وألقنا به وبإخوانه المصدقين في جنة الرضوان.

والله من وراء المقصد.